القرآن الكريم
كـأنما نــزل الآن

القرآن الكريم

كأنَّما نَزَلَ الآن

بقيَ القرآنُ محفوظاً بحِفظ الله، فلم يعد هناك تكلُّف في استحضار الصلة بين مَن نَزَّل القرآن، ومَن نَزَلَ به، ومَن نُزِّل عليه.

وأنت تقرأ القرآنَ فترى وتسمع..

ولا يفصلك عما جاء به القرآن فواصلُ زمانٍ أو مكان.

تقرأ القرآنَ وكأنما نَزَل الآن، والرَّسُول الذي يتلقّاه تراه حاضراً، وجبريل الذي نَزَل به ليس بعيداً أو غائباً.

ذلك ما تُحقّقه لك تلاوةُ القرآن، وما تجده دون تكلُّفٍ أو خفاء برهان.

تعالَ بِنَا إلى روضة القرآن الكريم؛ لنرى الرسول ﷺ مُخاطَباً حاضراً، ونرى جبريلَ بكلامِ الله آتيا، ونرى الحُكم الذي جاء به على مَرِّ الزمان مَتْلُوّاً وباقياً، يُحكَمُ به على مَرِّ الزمان وكأنما نَزَل الآن.

مع أن الحُكمَ قد نزل في "خَوْلَة بنتِ ثعلبة" وزوجِها "أوس بن الصامت" حين قال لها: « أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمي ».

وسببه: ما رُوي أنها كانت حسنة الجسم، فدخل عليها زوجُها مرَّة، فرآها ساجدةً في الصلاة، فنظر إلى عجيزتها، فأعجبه أمرها. فلما انصرفت من الصلاة طلب وِقاعَهَا، فَأَبَتْ، فغضب عليها، وكان به لَمَمٌ، فأصابه بعضُ لَمَمِهِ، فقال: « أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي » ثم نَدِمَ على ما قال، وكان « الظهارُ والإيلاء » من طلاقِ أهل الجاهلية.

فقال: ما أُظنُّك إلاَّ قد حُرمت عليَّ.

فقالت: ما ذاكَ طلاق.

فأتت رسولَ الله ﷺ وعائشةُ تغسل شِقَّ رأسِه.

فقالت: « يا رسول الله، إن زوجي ـ أوس بن الصامت ـ تزوجني وأنا شابة غنية، ذات أهل ومال، حتى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وتفرَّق أهلي، وكَبُرَ سِنِّي، ظَاهَرَ مني. وقد نَدِم. فهل من شيء يجمعني وإيَّاه، تنعشني به ؟ »

فقال رسول الله ﷺ: « حُرِّمتِ عليه ».

فقالت: « يا رسول الله، والذي أنزل عليك الكتابَ، ما ذَكَرَ الطلاق. وإنه أبو ولدي، وأحبُّ الناس إليَّ ».

فقال رسول الله ﷺ: « حُرِّمتِ عليه ».

فقالت: « أشكو إلى الله فاقتي ووَحْدَتي، فقد طالت له صُحبتي، ونفضتُ له بطني ».

فقال رسول الله ﷺ: « ما أراكِ إلاَّ قد حُرِّمتِ عليه، ولم أومَر في شأنك بشيء ».

فجعلت تراجع رسولَ الله ﷺ وإذا قال لها رسولُ الله ﷺ: « حُرِّمتِ » هتفت، وقالت: « أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، وشدَّة حالي، وإن لي صبية صغاراً، إنْ ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا ».

وجعلت ترفع رأسَها إلى السماء، وتقول: « اللهم أشكو إليك، اللهم فأنزِل على لسان نبيِّك فَرَجِي ».

فكان هذا أول ظِهَارٍ في الإسلام.

فقامت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ تغسلُ شِقَّ رأسه الآخر ﷺ.

فقالت: « انظُرْ في أمري، جعلني الله فداك يا رسول الله ».

فقالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: « أقصِري حديثَك ومجادلتك. أَمَا ترى وجهَ رسول الله ﷺ ؟! » وكان ﷺ إذا نزل عليه الوحيُ أخذه مثلُ السُّبَاتُ، أي النوم.

فلما قضي الوحي، قال ﷺ: « ادعى لي زوجك »

فَدَعَتْهُ، فتلا عليه رسولُ الله ﷺ قولَه:

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ ﴾.[1]

روى النسائيُّ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت:

---

(1) المجادلة: ١ـ ٤.

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ. لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا ، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ.... الآيات ﴾ ».[1]

فقال ﷺ لزوجها: « هل تستطيع العِتْق ؟ »

فقال: لا. والله.

فقال ﷺ: « هل تستطيع الصومَ ؟ »

فقال: لا. والله؛ إني إن أخطأني الأكلُ في اليوم مرةً أو مرتين، كَلَّ بصري، وظننتُ أني أموت.

قال ﷺ: « فَأَطْعِم ستين مسكيناً ».

قال: ما أجدُ إلاَّ أن تُعينني معونة وَصِلَة.

فأعانه رسولُ الله ﷺ بخمسة عشر صَاعاً، فتصدَّق بها على ستين مسكيناً.

حَادثٌ وقع في عهد رسول الله ﷺ ـ والقرآنُ يتنزل ـ أُمِرَ جبريل ـ أَمينُ الله ـ فنزل على قلبِ الرسول ﷺ بما أوحى الله به.

والمُجَادِلَةُ لم تُبارحْ مكانَها، ولم تنقطع مجادلتُها وشكواها.

وعَائِشَةُ ـ رضي الله عنها ـ ترى مجادلتها، ولا تسمع ما تقول.

ولكن الله قد سمع من فوق سبع سماوات.

---

(1) النسائي: كتاب الطلاق.

كانت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ حاضرةً لهذه القصة كلها، فكانت تقول: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ. لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَل: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ..... الآيات ﴾ ».[1]

حادثٌ وقع في زمن التنزيل، نزل فيه قرآنٌ كريم، يُتلى ويُسمَع.

نَعرِفُ منه أَنْ لا شيء من أمرِنا يَخفى على الله أو يغيب.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.[2]

هذه الدلالة تراها في حَدَثٍ واقع لم يستطع الرَّسُول ﷺ إلاَّ أَنْ يقول لِخَوْلة ـ وهي تشتكي وتُجادل ـ: « ما أُمِرْنَا في أمرك بشيء ».

فهو ينتظر ﷺ حُكمَ الله فيما وقع.

لم يَقُلْ لخَوْلَةَ: « اذهبي حتى يقضِيَ الله في أمرك »

وهى التي قالت لزوجها: « والذي نفس خولة بيده، لا تخلص إليَّ وقد قُلْتَ ما قُلْتَ، حتى يَحكُمَ الله ورسولهُ فينا بحُكمه ».

فهي تنتظر حُكم الله، وقد سمعت من رسول الله ﷺ ما سمعت.

وهي التي استعارت من بعض جاراتها ثياباً، ثم خرجت حتى جاءت إلى رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت ما لقيت منه، وجعلت

---

(1) النسائي: كتاب الطلاق.

(2) المؤمنون: ١٧.

تشكو إليه، وجعل رسول الله ﷺ يقول: « يا خويلة، ابن عَمّك شيخٌ كبير، فاتَّقي الله فيه ».

كُلُّ ذلك والرَّسُول ﷺ ينتظر حُكمَ الله في شأنها.

قالت خولة: « فوالله ما بَرِحْتُ حتى نزل فيَّ قُرآنٌ ».

فتَغَشى رسولَ الله ﷺ ما كان يتغشَّاه، ثم سُرِّي عنه فقال لي: « يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً ».

خولة ما برحت مكانها، ولا ذهبت ثم رجعت، بل كان جبريل بأَمْرِ ربِّه مُوفَداً إلى رسول الله ﷺ وهو في داره، وصاحبة الشكوى ترى وتسمع.

ترى دلائلَ الوحي في وجه رسول الله ﷺ، وتسمع ما جاء به أمينُ الله تلاوةً من رسول الله ﷺ.

ويأتي زوجُها "أوس بن الصامت" فيسمع ما نزل من القرآن، وما قضى الله به.

ويبقى الحُكمُ حُكماً لمن يأتي إلى آخر الزمان.

ويبقى بيانُه من رسول الله ﷺ أسوةً في الحياة، بل يبقى عملُ هذه الزوجة الطَّهُور نِبْرَاساً لِمَن ابتغى مرضاة الله.

قالت خَوْلَةُ ـ فيما رواه أحمدُ ـ حين قال الرَّسُول ﷺ: « سنعينه بفَرق من تمر »[1].

قالت: فقلتُ يا رسول الله، وأنا سأُعينه بفرق آخر.

---

(1) الفَرقُ: مكيال يَسَع ستةَ عَشَرَ رَطْلاً.

قال ﷺ: « قد أصبتِ وأحسنتِ، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عَمِّك خيراً ».

قالت: ففعلت.

إنَّ مثل هذه المرأة جديرةٌ أن تُكرَّم، وأن يُسمَعَ لها.

وذاك ما كان من عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في شأنها.

فقد رُوي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه مَرَّ بها في زمن خلافته وهو على حمارٍ، والناس حوله، فاستوقفته طويلاً ووعظته.

وقالت: « يا عمرُ، قد كنت تُدْعَى "عُمَيْراً" ثم قيل لكَ: "عُمر" ثم قيل لك: "أمير المؤمنين".

فاتَّقِ الله يا عمر؛ فإنَّ مَن أيقنَ بالموت خاف الفَوت، ومَن أَيْقَنَ بالحساب خاف العذاب ».

وهو واقف يسمعها !

فقيل له: يا أمير المؤمنين، أتقفُ لهذه العجوز هذا الموقف ؟!

فقال: « والله لو حبستني من أوَّلِ النهار إلى آخره لا زِلْتُ إلا للصلاة المكتوبة. أتدرون مَنْ هذه العجوز ؟

هي خولة بنت ثعلبة.

سَمِعَ اللهُ قَوْلَها من فوق سبع سماوات.

أيسمعُ ربُّ العالمين قولَها، ولا يسمعه عمر ؟!!

* * *